دور الأدب والفن في مقاومة الاحتلال

هذا النص مأخوذ من كتاب "المقاومة"، كريم مروة، الصادر في عام ١٩٨٥

المقاومة لم تخلق ثقافتها بعد! هذا الكلام يُقال، ويجري تكراره، بين الحين والآخر. يردده بعض مثقفينا، على وجه الخصوص، وقد يكون في هذا الكلام شيء من الصحة، غير أننا لا نميل إلى الأخذ به، ولا الانخراط في النقاش حوله. فما يهمنا، في هذا الموضوع بالذات، هو أمر آخر، مختلف. وبرغم ذلك فإننا نرى أن هذا المفهوم، "ثقافة المقاومة"، يحتاج إلى نقاش ما، إلى تحديد.

---------- ١ ----------

فما المقصود، هنا، بـ" ثقافة المقاومة"

إذا كان المقصود هو الفكر فإن فكر المقاومة موجود في الفكر الثوري، فكر الحركة الوطنية الثورية في لبنان وفي الوطن العربي، موجود في النظرية الثورية المعاصرة للكفاح من أجل التحرر والتقدّم. ذلك أن المقاومة الوطنية اللبنانية الراهنة ليست، في نظرنا، بالمطلق، عملاً منفصلاً عن الحركة الثورية في بلادنا، بل هي جزء من هذه الحركة، لا يتجزأ، ولّدتها ظروف العمل الثوري من خلال تطوره، وأعطتها الأحداث والوقائع المتتالية شكلها الملموس.

أمّا إذا كان المقصود بالفكر، هنا، ما هو خاص بلبنان في النظرية الثورية لحرب الأنصار فإن مثل هذا الفكر لا ينشأ، في الأساس، بمعزل عن الممارسة، ولا يتخذ شكله المحدد ومحتواه إلا بالارتباط مع الممارسة. وفي هذا المجال بالذات نشعر، نحن الوطنيين الثوريين اللبنانيين، أننا لسنا جديدين على هذا النوع من الكفاح، لا من حيث الإعداد له والاستفادة من تجارب الآخرين في ذلك، ولا من حيث ممارسته، ولا من حيث الفكر المرتبط به المنظّر له. فقد نشأت فكرة المقاومة عندنا منذ بدايات الحركة الوطنية، وتطورت معها، واتخذت مع تفاقم العدوان الإسرائيلي في أواخر الستينات، وبالاستناد إلى تجربة الثورة الفلسطينية والتحالف معها، شكلها الخاص، ومحتواها الذي ظلَّ يتقدم، بدور متميّز وفاعل للطبقة العاملة وفكرها، بوضوح متزايد، إلى أن قامت جبهة المقاومة بقرار ثوري واعٍ، وابتدعت أشكال ممارستها الفذَّة للكفاح الوطني التحرري، في قلب المعركة الثورية اللبنانية والعربية، وباسم أهدافها، وتحت شعاراتها.

فكر المقاومة، كان موجوداً قبل أن ندخل في هذا الظرف التاريخي المحدد ونمارس فيه حرب المقاومة ضد الاحتلال الإسرائيلي، ونطورها ونحقق فيها إنجازات عظيمة. وقد اغتنى هذا الكفاح، ولا شك بالتجربة، وكدّس المعارف، وابتدع أساليبه الخاصة، في الوقت الذي كان فيه يغرف مما

قدمته النظرية الثورية الكونية للكفاح الثوري، ويغتني بالتجارب الثورية الناجحة القديمة والمعاصرة، في البلدان الأخرى.

---------- ٢ ----------

هل المقصود بـ" ثقافة المقاومة" الأدب والفن وفروعهما؟

في هذا الموضوع، أيضاً، تزخر الحركة الوطنية الثورية اللبنانية والعربية بتاريخ حافل وتراث غني. وهما تاريخ وتراث يتراوح الغنى فيهما حسب المرحلة المعينة. ولا يحدد درجة الغنى هنا كون المرحلة التاريخية أكثر، أم أقل، تقدماً، في قلب العملية الثورية. فقد دلّت التجربة أنه من الممكن أن يترافق تطورّ العملية الثورية، في مراحل معينة منه، بالكثير من التعقيد الذي يصعّب الرؤية فيخلق، بذلك، بعض حالات من الانقطاع النسبي بين مستوى تطوّر الحركة وتطوّر برنامجها، ومستوى استيعاب بعض أوساط المثقفين لها، لا سيما بين المبدعين منهم في مجالات الأدب والفن. وهذه الحالة هي ما شهدنا نموذجاً لها في الحرب الأهلية، بشكل عام، وفي بعض مراحلها، بشكل أكثر تحديداً. وهي الحالة، أيضاً، التي رافقت، أحياناً، بعض ما علق من التباس في موضوع المقاومة، بالذات، لا سيما في المحاولات التي جرت على نطاق واسع، وبالكثير من الضجيج، من أجل إغراق المقاومة وبطولاتها وشجاعة المقاتلين في صفوفها بالموجات الطائفية والمذهبية والمناطقية.

إن ذلك كله لا يغيّر في قناعتنا بأن أدباً وفناً للمقاومة قد نشأ مع المقاومة، وهما يتطوران الآن، ويؤسسان لمرحلة لاحقة لا شك أنها ستكون أكثر ثراءً، وأكثر غنى، وأكثر تعبيراً عن التجربة الحية للمقاومة الوطنية كجزء متميز من الكفاح الذي تخوضه حركتنا الثورية وتحقق فيه أهدافها وتتقدم على طريق التغيير الثوري.

ليس ما قلناه انخراطاً في النقاش الذي أشرنا إليه في البدء، بل هو رأي نعلنه، ونشعر أننا بحاجة لأن نضيف إليه بعض الملاحظات. غير أننا نود أن نتوقف، قبل ذلك، عند ظاهرتين لبنانية وفلسطينية.

الظاهرة الأولى هي المعروفة بظاهرة أدب المقاومة الفلسطينية. هذه الظاهرة كانت خلال الستينات الظاهرة الأبرز في الأدب العربي. وقد عبّرت بقيامها، ليس فقط عن الطموح الجارف عند الجماهير العربية، آنذاك، إلى التحرر القومي والاجتماعي واستعادة الأرض الفلسطينية

المغتصبة، بل عبّرت، بذلك عن حركة تجديد في الأدب العربي، والشعر منه بشكل خاص. فبرزت أسماء اميل حبيبي وتوفيق زياد ومحمود درويش وسميح القاسم ومعين بسيسو وسالم جبران والشاعر السابق عليهم، الذي رحل، أبو سلمى (عبد الكريم الكرمي). هذه المدرسة الجديدة في الأدب العربي لم تحمل بالصدفة اسم المقاومة. فقد كان الزمن، في بداية نشوئها، زمن مقاومة جماهيرية ضد السيطرة الاستعمارية بأشكالها كافة، على البلاد العربية، عبّرت الحركة الثورية، بقيادة جمال عبد الناصر، عن أهدافها في جملة من المعارك والحروب التي خاضتها ضد العدوان والاغتصاب الاسرائيليين، وضد الأحلاف الاستعمارية، ومن أجل استعادة الثروات القومية، ومن أجل إحداث التحولات الاجتماعية، ومن أجل تحرير فلسطين، ومن أجل تحقيق الوحدة القومية لشعوب الأمة العربية. في هذه المدرسة الأدبية النضالية تعلّم الكثيرون من الأدباء الشباب واغتنت التجربة الأدبية ذات المحتوى الثوري بشكل عام.

الظاهرة الثانية هي التي اقترنت بأسماء مارسيل خليفة وزياد الرحباني وخالد الهبر وأحمد قعبور والعديد من هؤلاء الفنانين المبدعين الذين، وإن اختلفت مستويات إبداعهم، فإنّهم شكّلوا، مع الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم في مصر، ظاهرة جديدة في الأغنية والموسيقى أهم ميزاتها أنها دخلت إلى وعي الجماهير وإلى مشاعر الإنسانية وأحاسيسها الوطنية، ومارست تأثيراً عميقاً، وتحوّلت، بفعل هذا الدور الذي اكتسبته، إلى قوة مادية ترسَّخت في حياة شعبنا وفي وجدان الشبيبة، وأصبحت جزءاً من الكفاح الوطني الثوري، وصار المقاومون الشجعان يذهبون إلى مهماتهم الصعبة، في كل جبهات القتال، على أنغام هذه الموسيقى الثورية وكلمات أغنياتها وأصوات المغنين التي كانت تعطي لهؤلاء المقاتلين المزيد من القوة والعزم والتصميم وتعمِّق ثقتهم بالنصر.

هاتان الظاهرتان لا تعبّران وحدهما عن هذا التراث الذي أشرنا إليه من آداب المقاومة وفنونها، بل هي تشكّل في هذا التراث، أحد أبرز التعبيرات الحية المباشرة عنه.

ولسنا نرى، في هذا المجال، ما يدعو إلى المقارنة مع سوانا من الشعوب ومن تجاربها، ومن ثقافاتها، ومن نتاجها الأدبي والفني المنخرط في المقاومة. ولذلك فحين نشير إلى أسماء برزت عند شعوب أخرى، واجهت مثل الذي نواجهه نحن الآن من مهمات اقتضت مثل هذا النوع من الكفاح، فإننا نقصد بذلك، فقط، استلهام المثل، وتزويد تراثنا بالجديد الغني من تراث الحركة الثورية العالمية التي نحن جزء منها. ففي الاتحاد السوفياتي برزت أسماء ايليا إهرنبورغ وقسطنطين سمونوف وبوريس بوليفوي، (الخ..) الذين كانوا أدباء مقاتلين على الجبهة في الحرب

الوطنية العظمى. وبرزت في فرنسا، خلال حرب المقاومة ضد الاحتلال النازي، أسماء بول ايلوار ولويس اراغون وزملائهما شعراء وأدباء المقاومة الفرنسية الذين لعبوا دوراً بالغ الأهمية في المقاومة. فقد كانت أشعارهم توزع، في شكل مناشير، بالملايين على الشعب الفرنسي، وبرز اسم الشاعر اليوناني رتسوس والشاعر الإسباني غارسيا لوركا، والشاعر الشيلي بابلو نيرودا، والمغني الزنجي الأميركي بول روبسون، وشاعر الثورة في إفريقيا الجنوبية الشاب مولويزي الذي اغتالته القوى العنصرية والفاشية في السجن، منذ فترة قصيرة.

الأمثلة على هذا النوع من أدب المقاومة عديدة لا تحصى. وهي في كل بلد وكل شعب تأخذ شكلها الخاص ونكهتها الخاصة، في قلب المعركة، وخلال تطورها، وفي ظل ما تحققه من إنجازات، وما يجترح فيها من بطولات. وطموحنا في لبنان أن تتطوّر كل أشكال التعبير الأدبي والفني المقاتل، بالارتباط مع تطور المقاومة وتطور النضال الوطني الثوري على طريق التحرر الوطني الكامل والتغيير الديمقراطي، لكي تأخذ هذه الأشكال الأدبية الفنية صفتها الخاصة، وطابعها الثابت المميز، ونكهتها الخاصة.

---------- ٣ ----------

هنا نرى ضرورة أن نطرح بعض الملاحظات ونقدم بعض الاقتراحات

الملاحظات التي نود أن نتوقف عندها تتلخص بالآتي:

ملاحظة أولى: حول العلاقة بين الثقافة والسياسة. إننا نعتبر أن النقاش الذي يجري، أحياناً، حول هذا الموضوع، لا يأخذ، دائماً، طابع النقاش الصحيح الذي لا غنى عنه، حتى في المواضيع التي تبدو وكأنها، لشدة الوضوح فيها، لا تحتاج إلى نقاش. الخلل في هذا النقاش أن بعض الذين يشاركون فيه يضعون نوعاً من التعارض، يكاد يكون مطلقاً، بين الثقافة والسياسة. فهل يمكن أن تكون هناك ثقافة بدون موقف سياسي، طبقي؟

إن المثقف لا يستطيع إلا أن يكون جزءاً من مجتمعه، أي جزءاً من تناقضات هذا المجتمع، وطرفاً في الصراع الطبقي والسياسي الذي يدور فيه. والموضوع الذي لا بد من مناقشته، هنا، يتعلق بتحديد الدور الذي ينبغي أن يضطلع به المثقف في مجتمعه، والموقع الذي ينبغي أن تحتله الثقافة في النضال الثوري من أجل التقديم. ولن نقحم هنا أسماء كبار المثقفين في العالم، في القديم من تاريخ البشرية، وفي الجديد منه، لكي نبرهن أين ينبغي أن يكون المثقف وما هو دور

الثقافة: فليست هذه، وحدها، الطريقة التي ندافع فيها من وجهة النظر الحزبية في الثقافة، عن العلاقة الصحيحة بين الثقافة والسياسة.

ملاحظة ثانية: حول الموقف من الاحتلال، والموقف من المقاومة. فليس صحيحاً أن الاحتلال ومقاومته يشكّلان حدثين مقطوعين عن الأسباب والنتائج في الأحداث المتتالية وفي الصراع الدائر حولها، وفي قلبها، بين الحركة الثورية والحركة المعادية للثورة. الاحتلال جزء من الهجمة المعادية، والمقاومة جزء من النضال ضدها. كلاهما جزء من الحرب الأهلية، واستمرار وتطور لها، بشكل مختلف. من هنا ضرورة أن يُنظر إليهما، في موقعهما الحقيقي في حركة الصراع، لا خارج هذا الموقع. ومن هنا أهمية أن نتعامل معهما في الوسط الثقافي، بتياراته الديمقراطية، تحديداً، انطلاقا من الموقع الديمقراطي الثوري للثقافة والمثقفين، لا خارج هذا الموقع، أو على هامشه أو على حدوده. فمن غير الطبيعي، مثلاً أن نحصر اهتمامنا، في غياب الأحداث الجارية، بالمقاومة، فنمجِّدها، ونمجِّد أبطالها، ونتجنب الخوض في الحرب الأهلية، كالتباس سياسي وفكري في الصراع لا يعني المثقف الديمقراطي. إن ذلك يشّكل، في التعامل مع الأحداث التاريخية، ومع الصراع المرافق لها، نوعاً من التعسف الذي يغير في مجرى التطور، إلا أنه يدفع بصاحبه، موضوعياً، إلى الوقوع في حالة هي أقرب إلى التهميش منها إلى أي شيء آخر. وهو ما لا نريده، قط، أن ينزلق إليه أي مثقف ديمقراطي من مثقفي عصرنا الراهن، العصر الذي تحقق فيه الحركة الثورية تقدماً ملموساً وثابتاً، برغم كل تعقيدات الصراع وصعوباته والتباساته.

ملاحظة ثالثة: حول النتاج الفكري والأدبي والفني، في هذه المرحلة، في علاقته بالنضال الوطني الثوري. إننا نعتبر أن الحرب الأهلية، وحرب المقاومة ضد الاحتلال الإسرائيلي، قد أنتجت، إلى حدٍ بعيد، ثقافتها، فكراً وأدباً وفناً. في مجال الفكر المسألة تختلف. فالفكر الثوري يتطور ويتعمق، حتى في ميدان البحث في موضوع المقاومة وحرب الأنصار. أما في مجال الأدب والفن فثمة حاجة إلى اختمار، إلى وقت ضروري للإبداع. ومع ذلك فقد مرَّت فترات معينة كان الإبداع فيها غنياً. إلا أن ما يحتاج إلى العناية والاهتمام، بشكل خاص، فهو ما تشير إليه وتبشِّر به بعض المواهب الفنية من آفاق للتطور.

هذه الملاحظات التي نقدمها، ليست إلا شكلاً من أشكال الدعوة لاستمرار النقاش وتعميقه في الوسط الثقافي حول موضوع المقاومة، كمظهر من مظاهر الصراع الذي يحتدم، بكل الأشكال،

بين الحركة الوطنية الثورية، في لبنان والوطن العربي، وأهدافها في التحرر الوطني والاجتماعي، وبين التحالف الامبريالي – الصهيوني – الرجعي ومشاريعه العدوانية المختلفة.

غير أننا نتقدم، من أجل أن يزداد إسهام المثقفين في المقاومة، بخاصة، وفي الحركة الثورية، بعامة، بالاقتراحات التالية، موجهة إلى كل الوسط الثقافي، والى كل العاملين فيه، وكل المعنيين بشؤون الثقافة، بما في ذلك الأحزاب والتنظيمات الوطنية، والمؤسسات الاجتماعية، وكذلك الدولة:

إقتراح أول: بتجميع تراث المقاومة النضالي، في كل مجالاته، في العمليات العسكرية، وفي الانتفاضات الجماهيرية، وفي المقاومة داخل المعتقلات وداخل زنزانات التعذيب، وفي العمليات الاستشهادية، وسوى ذلك، وتحويلها إلى مادة خام، مادة أولية، ونشرها كما هي، في كتب وكراريس تروي ما حدث ببساطة وعفوية وصدق، ونشر ما كتب عنها. وما روي وصار جزءاً، ولو بسيطاً متواضعاً، من تراثنا في هذا المجال.

إقتراح ثانٍ: بإعادة إنتاج هذا التراث في شكل إبداعي، قصة ورواية وشعراً ومسرحاً وسينما وفناً تشكيلياً وموسيقى وغناء. وهي مهمة صعبة، ولا شك، وتحتاج إلى وقت، والى جهد، وإلى تشجيع. كما تحتاج من الأدباء والفنانين أن يستوعبوا هذا التراث وهذه التجربة، بعمق، وأن يتمثلوهما، وأن يتفاعلوا في وجدانهم، وأن يقتنعوا بهما، لكي يتمكَّنوا من ممارسة فعل الإبداع.

إقتراح ثالث: بدعوة المؤسسات الخاصة، ومؤسسات الدولة، تحديداً، إلى اعتماد هذا التراث جزءاً من تاريخ لبنان الحديث، فيجري إدخاله، بأشكال مختلفة، إلى المدرسة، إلى كتب التربية، فتتثقف به أجيالنا الجديدة، وتتكوَّن ثقافتها الوطنية، ويتعمَّق شعور الانتماء إلى الوطن عندها، على أساس هذا التراث.

المقاومة مستمرة، والثقافة، في كل ميادينها، هي جزء منها، وجبهة من جبهات الصراع فيها. هكذا نفهم المسألة.